

لا إله إلا الله عنوان التوحيد

وللتوحيد الذي جاء به الرسل عنوان يعبر عن حقيقته في كلمة موجزة ، هذا العنوان هو كلمة « لا إله إلا الله » التي تسمى « كلمة التوحيد » أو « كلمة الإخلاص » أو « كلمة التقوى » .

وهذه الكلمة العظيمة تتضمن نفي الإلهية عن كل ما سوى الله ، وإثباتها لله وحده ، فهو وحده الإله الحق ، وما عداه مما عبد الناس في مختلف العصور فآلهة زائفة باطلة صنعتها الجهالة والأوهام ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (الحج: ٦٢).

والإله هو : المعبود بحق - أي المحبوب المطاع ، الذي يستحق أن يُعبد - وذلك لما اتصف به من صفات الكمال ، التي تقتضي أن يخص بنهاية الحب ونهاية الخضوع ، وهما معنى العبادة ، فإن الإله - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - : هو الذي تأله القلوب بحبها ، وتخضع له ، وتذل له ، وتخافه وترجوه ، وتنسب إليه في شدائدھا ، وتدعوه في

مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه . . . وليس ذلك إلا الله وحده .
ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أصدق الكلام وأفضله ، وكانت رأس الأمر ، وأحسن الحسنات ، جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون قبلي : لا إله إلا الله » .

● التوحيد هو المهمة الأولى للرسل :

ولأهمية التوحيد ومنزلته في الديانات السماوية جميعاً ، كان هو العنصر الأول في دعوات الرسل جميعاً من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام .

إن المهمة الأولى للرسل الذين بعثهم الله هداة لعباده تتمثل في أمرين أساسيين كلاهما لازم للآخر ومكمل له :

الأول : الدعوة إلى عبادة الله وحده .

الثاني : الدعوة إلى اجتناب الطاغوت .

وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦).

ويقول مخاطباً النبي ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥).
ولهذا نجد أول نداء يوجهه كل رسول إلى قومه : ﴿ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف: ٥٩) . . هكذا ذكر القرآن عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم .

هكذا نجد نوحاً أول رسل الله إلى المشركين يقول لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ (هود: ٢٥، ٢٦).
والمسيح عيسى ابن مريم الذي اتخذه قومه بعد ذلك رباً يعبد ، يقول : ﴿ يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢).

أما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كانت دعوته إلى التوحيد واجتتاب الطاغوت أبرز وأقوى وأعمق وأخلد ، كما يبدو ذلك واضحاً في القرآن والسنة ، وكما يتجلى في شعائر الإسلام وشرائعه وآدابه وأخلاقه .

● التوحيد شعار الإسلام :

وكان من مظاهر عناية الإسلام الكبرى بالتوحيد أن جعله شعاراً له يميزه عن كل الديانات سواء منها الوثنية والكتابية المحرفة ، وأصبح أشهر ما يُعرف به الإسلام أنه « دين التوحيد » ، وصار عنوان الإسلام يتجسد في كلمتين أو جملتين من شهد بهما فقد دخل باب الإسلام . أولى هاتين الكلمتين : « شهادة أن لا إله إلا الله » ، والثانية : أن يشهد « أن محمداً رسول الله » .

وأصبح إعلان هذا التوحيد شعيرة يومية ، بل أكثر من يومية ، حيث يكررها الفرد المسلم في صلواته المفروضة فقط تسع مرات في تشهده ، وخمس مرات في إقامته ، ولم يكتف الإسلام بذلك ، بل شرع الأذان في كل يوم خمس مرات ؛ ليعلن على الدنيا كلها من فوق مناره بصوت جهير : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

ومن روائع الإسلام أنه سن للأب المسلم أن يستقبل مولوده بالأذان الشرعي ، يؤذن به في أذنه اليمنى ؛ لتكون كلمة التوحيد أول ما يطرق سمعه من أصوات الناس .

فإذا عاش في الدنيا ما قُدِّرَ له ، ثم حضرته الوفاة ، كان على أوليائه وأقاربه أن يلقنوه كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » . وبهذا يكون أول ما يستقبل به المسلم نور الحياة هو كلمة التوحيد ، وآخر ما يودع به الحياة هو كلمة التوحيد ، وما بين مهد الطفولة وفراش الموت ليس له مهمة غير إقامة التوحيد ، والدعوة إلى التوحيد .

● التوحيد حق الله على العباد :

ومما يؤكد هذا المعنى أن الرسول ﷺ بيّن أن التوحيد هو حق الله على عباده الذي لا يجوز التفريط فيه، ولا الغفلة عنه .. روى الشيخان البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي : « يا معاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً » . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : « لا تبشرهم فيتكلوا » .

والسر في هذا الحق أن الله تعالى خلق الإنسان من عدم ، وأمده بنعم لا تُحصى ، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار لخدمته ، وآتاه العقل ، وعلمه البيان ، فمن حق هذا الخالق الرازق ، المنعم المعلم ، الرحمن الرحيم ، أن يُشكر فلا يُكفر ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُطاع فلا يُعصى .

ولهذا كان بيان هذا الحق وتأكيدُه هو أول وصايا القرآن ، كما في الآية التي تسمى آية الحقوق العشرة المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ ﴾ (النساء: ٣٦) ... الآية . وكما قال في الآيات المحكمة المشتملة على الوصايا العشر في سورة « الأنعام » : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ ﴾ (الأنعام: ١٥١) .. الآيات . ومثل ذلك وصايا الحكمة في سورة « الإسراء » المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۖ آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۖ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ ﴾ (الإسراء: ٢٢، ٢٣) . . . الآيات .

● التوحيد رسالة المسلم في الحياة :

وإذا كان المسلم يستقبل حياته بالتوحيد ويودعها بالتوحيد ، فإن وظيفته بين مهد الطفولة وفراش الموت ، هي إقامة التوحيد ، والدعوة إلى التوحيد .

ويقول الله تعالى في بيان الوظيفة التي خلق لها المكلفين من الإنس والجن : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) .
مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (الذاريات: ٥٦، ٥٧) .
بينت الآية الكريمة أنه سبحانه خلقهم ؛ ليعبدوه وحده لا شريك له ، فهذه هي الغاية والحكمة من خلقهم .
لم يخلقهم الله تعالى ؛ ليأكلوا ويتمتعوا ، كما تأكل الأنعام ، دون أن يعرفوا الله جل شأنه ، ويقدروه حق قدره ، ويخصوه بالعبادة ضارعين خاشعين .

فمن عاش عمره من غير أن يحقق هدف وجوده ووظيفته حياته ، وهي عبادة الله وحده - فقد انحط عن مرتبة المكلفين العقلاء ، وأصبح كالأنعام أو أضل سبيلاً .

● التوحيد رسالة الأمة الإسلامية إلى الأمم :

والتوحيد كما هو رسالة المسلم في الحياة ، هو أيضاً رسالة الأمة المسلمة إلى العالم كله ، وإلى الأمم جميعاً . ولهذا كان النبي ﷺ يختم دعوته إلى كسرى وقیصر وغيرهما من ملوك الأرض وأمرائها ، بهذه الآية الكريمة : ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقد كان الصحابة ، رضوان الله عليهم ، ومن تبعهم بإحسان يعرفون هذه الرسالة وواجبهم نحوها ، وحين سأل رستم قائد الفرس ربيع بن عامر في حرب القادسية : من أنتم؟ وما مهمتكم؟ أجابه بقوله : « نحن قوم بعثنا الله ؛ لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ».

بماذا يتحقق التوحيد؟

إن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، وعني الإسلام بتثبيته وتأكيده وحمايته - لا يتحقق وترسخ جذوره وتمتد فروعه ، إلا إذا توافرت له العناصر الآتية :

العنصر الأول : إخلاص العبودية لله وحده .

العنصر الثاني : الكفر بكل الطواغيت والبراءة ممن عبدها أو والاها من دون الله .

العنصر الثالث : اتقاء الشرك بكل ألوانه ومراتبه ، وسد المنافذ إليه .

أولاً - إخلاص العبودية لله :

أما إخلاص العبودية لله تعالى فمعناه : إعطاء الألوهية حقها الكامل من التعظيم والمحبة والخضوع المطلق ، وذلك يثبت بأمور ثلاثة :

١- ألا يبغى الإنسان غير الله رباً يعظمه كما يعظم الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۖ ﴾ (الأنعام:١٦٤). فكل ما اتخذته الناس من أرباب عبودها أو عظموها من دون الله أو مع الله يجب أن يسقط

ويزول سواء أكانت أرباباً من الحجر أم من البشر ،
ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء :
﴿ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

٢- ألا يتخذ غير الله ولياً يحبه كحب الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ
أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأنعام: ١٤).
وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا
يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).
إلى أن قال تعالى في شأنهم : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ
حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (البقرة: ١٦٧).

والمعنى : أنهم يحبون أندادهم وأولياءهم حباً ممتزجاً
بالخضوع والخوف والتعظيم الذي لا يجوز أن يكون إلا لله .
وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : ذكر أنهم
يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً
عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر
من حب الله ؟ وكيف بمن أحب الند وحده ولم يحب الله ؟!

إن مقتضى التوحيد أن يخلص المرء حبه لله ، ولا يتخذ ولياً ولا نداً يحبه كحب الله ، فالولاية لا تكون إلا لله : ﴿ أَمْرٌ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى: ٩).

٣- ألا يبتغي غير الله حكماً ، يطيعه كما يطيع الله ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ (الأنعام: ١١٤).

وذلك أن الذي له حق الحكم في شئون عباده والتشريع لهم في أمور دينهم ودنياهم إنما هو الله وحده ، العليم بخلقه ، الرحيم بهم ، الخبير بما يصلحهم وما يفسدهم ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

ومن هنا قرر القرآن الكريم أن الحكم - بمعنى التشريع - ليس إلا لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٤٠).

كما اعتبر القرآن التحاكم إلى غير الله ورسوله خروجاً عن حقيقة الإيمان ، ودخولاً في طاعة الشيطان : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أُنزِلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ (النساء: ٦٠، ٦١).

ثانياً - الكفر بالطواغيت :

كان العنصر الأول في تحقيق التوحيد هو إخلاص العبودية لله ، وإعطاء الألوهية حقها من التعظيم والمحبة والطاعة التي لا ينبغي أن تكون إلا لله سبحانه .

أما العنصر الثاني ، فهو الكفر بالطواغيت والبراءة من كل من عبدها أو والاها من دون الله ، حتى إن القرآن الكريم قدّم أحياناً الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله » . (رواه مسلم).

فلم يجعل الإقرار بكلمة التوحيد ، عاصماً للدم والمال ،
حتى يضم إليه الكفر بما يُعبد من دون الله .

ذلك أن الأشياء تتميز بأضدادها ، فالإيمان بالحق لا يتميز
ويتحقق إلا بالكفر بالباطل ، والبراءة من أهله .

ولهذا أعلن إمام الموحدين - إبراهيم عليه السلام - براءته
من آلهة قومه وأصنامهم وعداوته لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي
فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ۖ ﴾ (الزخرف: ٢٦، ٢٧) . وقال سبحانه : ﴿ قَدْ
كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءٌ وَأَنتُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلْعَادَؤُةٌ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۖ ﴾

(المتحنة: ٤) .

وبهذا نعلم أن التوحيد الحق لا يتم إلا إذا انضم إلى
الإيمان بالله وعبادته ، الكفر بالطاغوت والبراءة من أوليائه ،
ومن أجل ذلك كان نداء الرسل جميعاً إلى قومهم ما عرفنا
من قبل : ﴿ أَنْبِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦) .

ولكن ما معنى الطاغوت ؟

الطاغوت كلمة مشتقة من « الطغيان » وهو مجاوزة الحد . وقد اختلفت عبارات السلف في تحديد معناه ، فقال عمر رضي الله عنه : الطاغوت : الشيطان . وقال جابر رضي الله عنه : الطواغيت : كهان كانت تنزل عليهم الشياطين . وقال مالك : الطاغوت : كل ما عُبدَ من دون الله .

وهذه الأقوال تذكر أمثلة للطاغوت ، ولكنها لا تحصر كل أفرادها . وأضبط تحديد لمعنى الطاغوت ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله ، قال : « الطاغوت » كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

ثالثاً - اتقاء الشرك والحذر منه :

وهذا هو العنصر الثالث لتحقيق التوحيد ، وهو يقتضي معرفة أنواع الشرك كله أكبره وأصغره ، جليه وخفيه ، والتحرر من كل شائبة للشرك ، والحذر من منافذه ومداخله . إن الشيء - كما قلنا - لا يتميز إلا بضده ، فلهذا لا يعرف التوحيد خالصاً متميزاً إلا بمعرفة ضده وهو الشرك .
فما هي حقيقة الشرك؟

* * *